شيعة جنوب لبنان بين حوزتي النجف وقمّ مرجعيةً وتقليدًا

عبدالحليم حمود • 2026-01-16

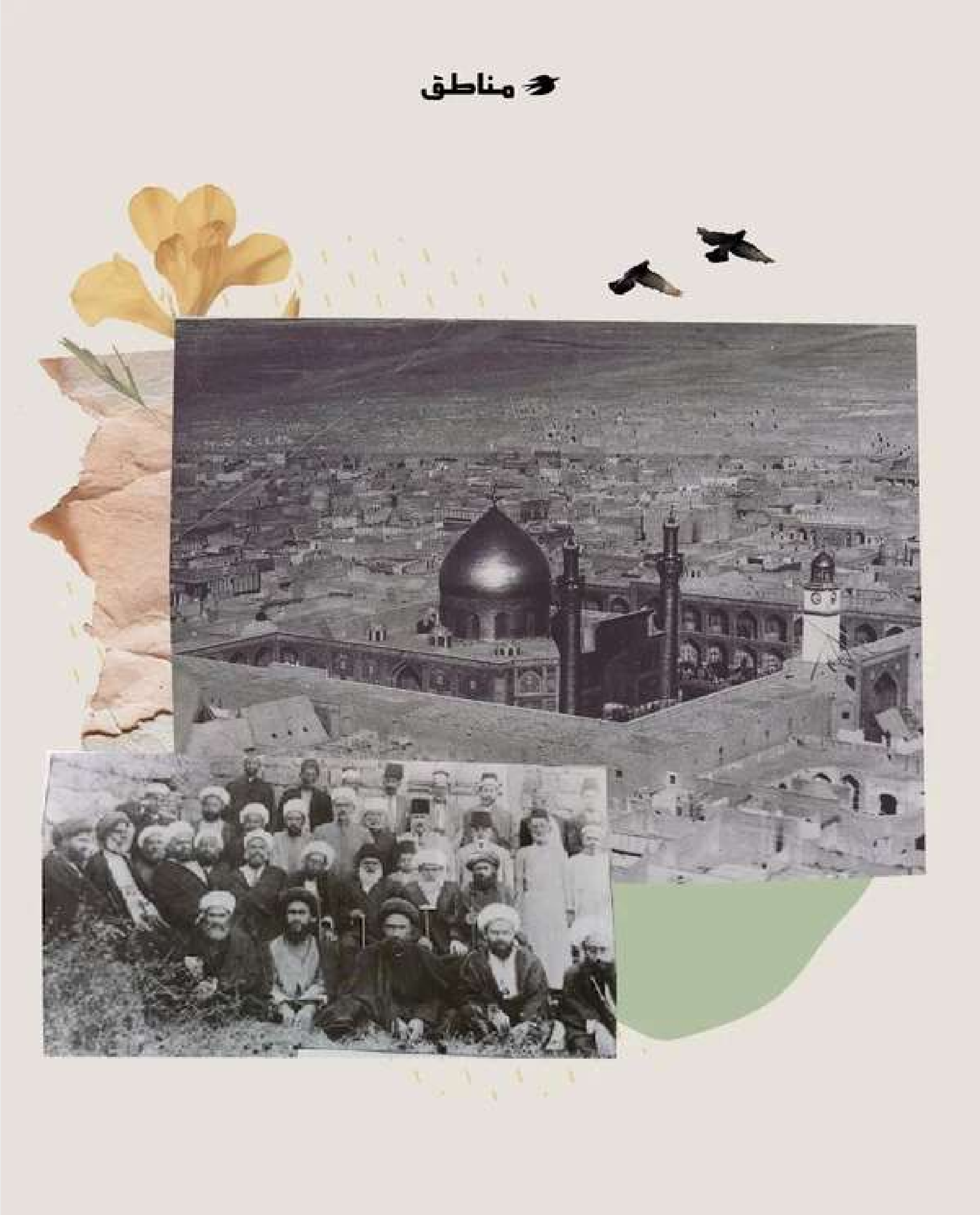

لم يشكّل شيعة لبنان استثناءً داخل البنية الطائفية للبلاد من حيث الارتباط بمرجعيّات دينية خارج حدود الكيان الصغير. تمامًا كما ارتبط الموارنة

والكاثوليك تاريخيًّا بالفاتيكان وباريس، والأرثوذكس بموسكو، والسنّة بالقاهرة ثمّ الرياض، والدروز بالإنكليز، نسج الشيعة علاقاتهم العميقة مع النجف العراقيّة وقمّ الإيرانيّة. هذا الارتباط نشأ مع تبلور المذهب الجعفريّ، واتّخذ طابعًا دينيًّا وفقهيًّا في البداية، ثمّ تمدّد لاحقًا إلى السياسة والتمثيل والهويّة. لعبت الجغرافيا دورها الرمزيّ أيضًا، بينما عبرت الطوائف المسيحيّة البحر نحو الغرب، امتطى شيعة جبل عامل "سفينة الصحراء" شرقًا، قاصدين مدينتين مقدّستين صاغتا وعيهم الدينيّ والاجتماعيّ.

قداسة بين النجف وقمّ

تنبع خصوصيّة حوزة النجف من ارتباطها العضويّ بملحمة عاشوراء، وبالجغرافيا العراقيّة التي احتضنت قلب الذاكرة الشيعيّة. كربلاء، أرض الدم والنداء الأخير، تضمّ مرقد الإمام الحسين وأخيه العباس بن علي، حيث تحوّلت الواقعة إلى نواة وجدانيّة ومعيار أخلاقيّ ومعرفيّ في بناء الفقه والوعي. النجف نفسها تقوم على أرض تحتضن مرقد الإمام علي بن أبي طالب، بما يحمله ذلك من ثقل رمزيّ يجعل العلم متداخلًا مع السيرة، والفقه مشدودًا إلى المثال الأعلى للعدالة والولاية.

وعلى مقربة، تمتدّ سامرّاء بمرقد الإمام علي الهادي و**الإمام الحسن العسكريّ**، فيما تحضر بغداد والكاظميّة بمرقد الإمام موسى الكاظم، فتتشكّل خريطة عراقيّة تجعل الأرض نفسها كتابًا مفتوحًا للتاريخ الشيعيّ، وتمنح الحوزة النجفيّة عمقًا وجوديًّا يتجاوز التعليم إلى المعايشة اليوميّة للذاكرة المقدّسة.

في المقابل، تقوم حوزة قمّ على خصوصيّة مختلفة في طبيعتها ووظيفتها. المدينة تحتضن مرقد فاطمة المعصومة، بما يمنحها بعدًا روحيًّا رفيعًا ومكانة وجدانيّة معتبرة، غير أنّ حضورها الحوزويّ تشكّل أساسًا عبر التنظيم والمؤسّسة وتراكم المدارس، لا عبر التعدّد الكثيف للمقامات المؤسّسة للسرديّة الشيعيّة الأولى. من هنا، تميل قمّ إلى إنتاج عقل فقهيّ مؤسسيّ، يقرأ التاريخ بوصفه مشروعًا قابلًا للتفعيل السياسيّ، بينما تستمدّ النجف إيقاعها من أرضٍ تتكلّم بالسيرة، وتجعل من الفقه استمرارًا حيًّا للملحمة.

مرقد الامام علي الهادي في سامراء

جبل عامل: الجغرافيا أنجبت الحوزة

يشكّل جبل عامل أحد أقدم الحقول العلميّة الشيعيّة في المشرق. المعرفة الدينيّة هنا اندمجت في البنية الاجتماعيّة اندماجًا عضويًّا، فتحوّل الفقيه إلى عنصر فاعل داخل القرية، يشارك في تنظيم الخلاف الأهليّ، وتثبيت القيم، وبناء المعنى الجماعيّ. الحوزة العامليّة نشأت داخل البيوت والمساجد والحسينيّات قبل أن تتّخذ شكلها المدرسيّ، فغدت المعرفة ممارسة يوميّة متداولة. هذا الإرث خلق استعدادًا دائمًا للارتحال طلبًا للعلم، وربط الجنوب منذ قرون بفضاءات علميّة تتجاوز حدوده الجغرافيّة.

منذ القرن التاسع عشر، اتّجه طلاب جبل عامل إلى النجف الأشرف بوصفها مركزًا للاجتهاد وتراكم المعرفة. في النجف، تشكّلت شخصيّة طالب العلم عبر الصبر الطويل، والملازمة اليوميّة لحلقات الدرس، والاحتكاك المباشر بأساتذة تركوا أثرًا عميقًا في تكوين العقل الحوزويّ الجنوبيّ. برزت أسماء مرجعيّة صاغت اتّجاهات فكريّة واضحة، مثل **أبو القاسم الخوئيّ** الذي عمّق الدقّة الأصوليّة، ومحسن الحكيم الذي مثّل المرجعيّة الجامعة العابرة للجغرافيا، ومحمد باقر الصدر الذي فتح الفقه على الاقتصاد والفلسفة ونقد الحداثة.

الامتداد المحلّيّ للنجف

النجف قدّمت نموذجًا يقوم على استقلال المرجعيّة، وعلى حضور اجتماعيّ فاعل عبر الإرشاد والفتوى والوساطة، مع حسّ سياسي يتّسم بالحذر العميق. هذا التكوين أفرز علماء عادوا إلى الجنوب حاملين سلطة معرفيّة رصينة،

قادرة على التفاعل مع التنوّع المحلّيّ، وصوغ توازنات دقيقة بين الدين والمجتمع، دون الارتهان المباشر لمشاريع سلطويّة.

تحوّلت النجف إلى رافد دائم للحوزات العامليّة. العلماء العائدون استعادوا المناهج داخل البيئة المحلّيّة، فصارت مدارس بنت جبيل وصور والنبطيّة وميس الجبل امتدادًا حيًا للنجف. البيوت تحوّلت إلى حلقات درس، والحسينيّات إلى فضاءات تعليم، وغدا الفقيه جزءًا من الاقتصاد الرمزيّ للقرية. هذا الامتداد حافظ على الطابع الاجتماعيّ للحوزة، وربط العلم بالحياة اليوميّة، فبقيت المرجعيّة قريبة من الناس، ومتّصلة بإيقاع المكان وهمومه.

قم: التحوّل المؤسسي والعقل السياسي

في مقابل هذا الإيقاع النجفي، برزت قمّ بوصفها حوزة ذات بنية مختلفة. منذ النصف الأول من القرن العشرين، ومع شخصيّات علميّة وتنظيميّة بارزة، تبلورت قمّ مركزًا منظّمًا يعتمد المدارس والمؤسّسات، ويوفّر رعاية مادّيّة ومعنويّة للطلاب. بلغ هذا المسار ذروته مع **الإمام الخميني**ّ، حيث تحوّل الفقه إلى مشروع حكم، وصارت الولاية إطارًا شاملًا لإدارة المجتمع والدولة.

طلّاب جنوب لبنان ممّن قصدوا قمّ عاشوا تجربة مغايرة: تعليم منظّم، خطاب عام جامع، وارتباط وثيق بين الفقيه والسياسة. هذه التجربة صاغت عقلًا حوزويًّا يميل إلى التنظيم والتعبئة، ويقرأ المجتمع بوصفه كتلة قابلة للحشد ضمن مشروع يتجاوز الحدود الوطنيّة، ويستند إلى خارج قويّ يعوّض هشاشة الداخل اللبنانيّ.

اختلاف في إنتاج السلطة

الفرق بين المدرستين يتجلّى في مفهوم السلطة الدينيّة. النجف تُنتج مرجعيّة تقوم على السمعة العلميّة والتراكم المعرفيّ، وتتيح هامشًا واسعًا للاجتهاد الفرديّ. قمّ تُنتج قيادة دينيّة ذات طابع مؤسّسيّ، تربط العلم بالفعل السياسيّ المباشر. هذا التباين انعكس بوضوح على الجنوب اللبنانيّ، فظهر نمطان متجاوران من التديّن: نمط وعظيّ اجتماعيّ متأثّر بالنجف، ونمط تعبويّ تنظيميّ متأثّر بقمّ. هذا التعايش خلق فسيفساء قياديّة تتكيّف مع السياق اللبنانيّ المركّب، حيث يتقاطع الدين مع السياسة ومع منطق الطوائف. من هنا كانت حركة أمل أقرب إلى النجف، على الرغم أن مؤسّسها السيّد موسى الصدر من مواليد قمّ، أمّا حزب الله فله ارتباط عضويّ بحوزة قمّ.

> الفرق بين المدرستين يتجلّى في مفهوم السلطة الدينيّة. النجف تُنتج مرجعيّة تقوم على السمعة العلميّة والتراكم المعرفيّ. قمّ تُنتج قيادة دينيّة تربط العلم بالفعل السياسيّ المباشر.

لعبت العائلات العلمية مثل آل فضل اللّٰه، والأمين، وشرف الدين، وشمس الدين، وصادق وابراهيم، دورًا محوريًّا في نقل الخبرة الحوزويّة إلى الجنوب. في مسارات نجفيّة، برزت عائلات أعادت إنتاج العلم داخل المجتمع، وربطت الفقه بالتربية والخطاب العام. في مسارات أخرى، انفتح طلّاب العلم على آفاق فكريّة أوسع، فظهر مثقّفون دينيّون وناقدون حملوا أثر النجف في الحسّ النقديّ والقدرة على مساءلة المسلّمات، مع الحفاظ على الجذور العامليّة. هذه التعدّديّة أكّدت أنّ الجنوب ظلّ مساحة مفتوحة لتفاعل نماذج معرفيّة مختلفة.

موسى الصدر: جسر تاريخيّ

داخل هذا المشهد، تظهر شخصيّة الإمام **موسى الصدر** بوصفها حلقة وصل نادرة بين النجف وقمّ. تكوينه في الحوزتين منحه قدرة استثنائيّة على الجمع بين العمق الفقهيّ والحسّ المؤسّسيّ. عند وصوله إلى لبنان في أواخر الخمسينيّات، قرأ واقع الجنوب بعين اجتماعيّة، فحوّل المرجعيّة إلى فعل، والعلم إلى مؤسّسة. أسّس أطرًا تمثيليّة، ونظّم المجتمع الشيعيّ، فانتقلت المرجعية من الرمز إلى الإنجاز الاجتماعي.

بعد تغييب الصدر في العام 1978، وانتصار الثورة في إيران في العام التالي، تعزّز حضور قمّ في الجنوب مع صعود التنظيمات السياسيّة والعسكريّة، وتحوّل الولاء الدينيّ إلى عنصر مركزي في المجال العام. متخرجو قمّ عادوا وهم يحملون مشروعًا متكاملًا يربط الجنوب بمحور إقليميّ أوسع. في المقابل، واصل متخرجو النجف حضورهم داخل التعليم الدينيّ والمؤسّسات الاجتماعيّة، محافظين على نمط قياديّ هادئ يقوم على الإرشاد والخدمة وبناء الثقة المحلّيّة.

المرجعية والولاء خرائط متداخلة

الولاء في التشيّع الجنوبيّ يتشكّل عبر طبقات متداخلة: اختيار مرجعيّ فقهيّ، وانتماء اجتماعيّ محلّيّ، واصطفاف سياسيّ يتأثر بميزان القوى الإقليميّ. هذا التداخل منح الجنوب قدرة عالية على التكيّف، وسمح بتعايش مدارس مختلفة داخل فضاء واحد. الحسينيّات والمؤسّسات التعليميّة والخدماتيّة صارت منصّات لاختبار هذه الصيغ، حيث يتجاور الخطاب الوعظيّ مع التنظيميّ، وتتفاعل المرجعيّة مع الدولة والمجتمع الأهليّ.

يحمل شيعة لبنان علاقة وجدانيّة عميقة مع النجف، علاقة تتجاوز الدرس والمرجعيّة إلى معنى السكن الأخير. في المخيال الجنوبيّ، تبدو النجف مدينة تُختَتم فيها السيرة، حيث يوصي بعض المقتدرين بأن يُوارَوا في وادي السلام، ذلك الامتداد الترابيّ الذي يضمّ أجسادًا جاءت من أمكنة بعيدة لتستقرّ قرب الإمام، وكأنّ الجغرافيا تُعيد جمع الشتات.

الوصية بالدفن هناك تعبير اجتماعيّ عن رغبة في استكمال الرحلة، من قريةٍ عرفت الحقول والحسينيّات إلى أرضٍ تتكثّف فيها الذاكرة والقداسة. في هذا الاختيار، يتحوّل الموت إلى فعل انتماء، وتغدو المسافة بين الجنوب والنجف خيطًا وجدانيًّا مشدودًا عبر الأجيال، يربط الحياة اليوميّة بمعنى الخلاص.

موسى الصدر | قم | شيعة لبنان | جنوب لبنان | النجف | الحوزات الدينية | التشيُّع | الوسوم